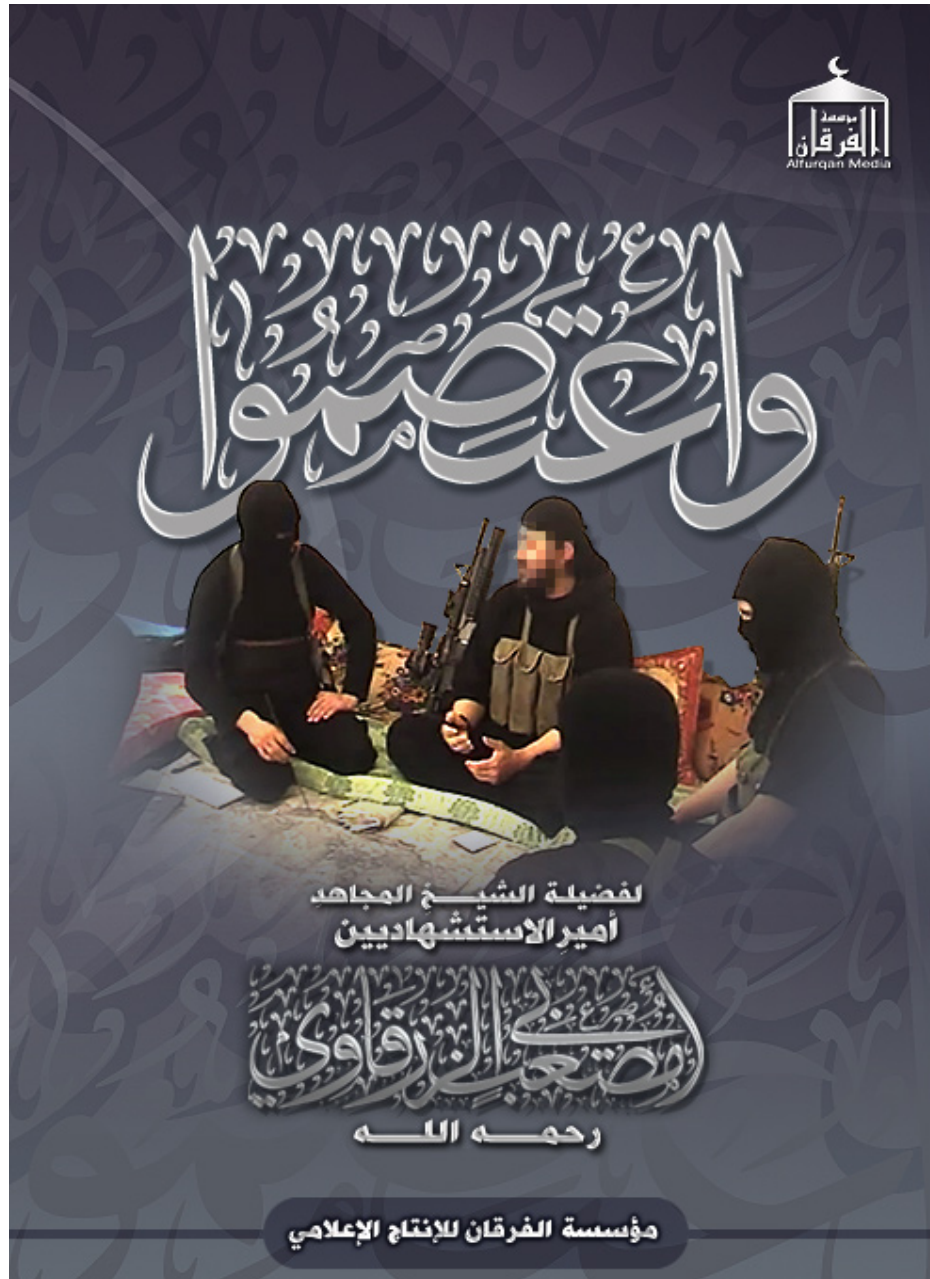


بسم الله الرحمن الرحيم
مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي تقدّم

واعْتَصِمُوا

لفضيلة الشيخ المجاهد
أمير الاستشهاديين
أبي مُصعب الزرقاوي "رحمه الله"





الفهرس

- [كلمة بين يدي الكتاب](#)
- [صور في وجوب السمع و الطاعة](#)
- [توقير الأمير](#)
- [حسن الظن بالأمير](#)
- [الإشاعة و أثرها على الصف المسلم](#)
- [نصيحة الأمير](#)
- [التناحي و خطورته](#)
- [الوفاء بالعهد](#)
- [الخاتمة](#)



كلمة بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتيب على وجازته وبساطته إلا أن روحاً صادقة بُثَّت في ثناياه، تُخفي وراءها نبعاً من الصدق لجامعها - نحسبه والله حسيبه -

ورغم أن الشيخ - رحمه الله - طلب من بعض أصحابه أن يعيد صياغة الكتيب ويشدّبه ويزيد فيه قبيل ملحمة الفلوجة الثانية إلا أن الظروف حالت؛ فآثرنا نشره كما هو عدا تعديلات بسيطة فيه؛ وذلك ليزداد أحباب الشيخ إعجاباً بمنهجه، وتزول ريبة المرتاب من حرص الشيخ على توحيد الكلمة قولاً وعملاً، ثم ليموت الكفار بغيظهم من رواج اسم الشيخ بين الخاصة والعامة ونمو النواة التي لم شتاتها ورعى نبتتها رغم محاولات الصليب العالمي طمسها؛ فقد عجز الغربال أن يغطي الشمس؛ والله الحمد.

وزارة الهيئات الشرعية

بالتنسيق مع وزارة الإعلام

الأربعاء ١٤/رمضان/١٤٢٨ هـ

٢٦/٩/٢٠٠٧ م



بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

ثم أما بعد:

فيقول - سبحانه وتعالى - في محكم تنزيله: {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣]، ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : "أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلوهم، ثم يَفْشُوا الكذب حتى يَخْلِفَ الرجلُ ولا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدُ الشَّاهِدُ ولا يُسْتَشْهَدُ، ألا لا يَخْلُونُ رجلٌ بامرأةٍ إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة؛ فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بُخْبُوحَةَ الجنة فليلزم الجماعة، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وساءتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلكم المؤمن"^١.

وقال - عليه الصلاة والسلام - : "فعليكم بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب القاصية"^٢، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "إن الله يرضى لكم ثلاثاً، وَيَسْخَطُ لكم ثلاثاً؛ يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصروا من ولّى الله أمركم، وَيَسْخَطُ لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال".

(فقد أوجب الله - تعالى - علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً... وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات، الذي يتم به مصالح الدنيا والدين والسلامة من الاختلاف ... وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين)^٣.

وقد حدد القرطبي - رحمه الله - معنى الجماعة : بأنهم الإخوان الذين يكونون على مذهب واحد؛ أي في منهج العمل والدعوة، فقال: "والإخوان جمع أخ؛ وسمي أخاً لأنه يَتَوَخَّى مذهب أخيه، يَقْصِدُهُ" وقال ابن عباس لسمك الحنفي: يا حنفي الجماعة الجماعة، فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها؛ أما سمعت قول الله - عز وجل - : { وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } [آل عمران: ١٠٣].

فالداعية لا بد له من التزود مع إخوانه أخذاً وعطاءً، فلا يَجْمُلُ التزود إلا مع الرُفقاء، ولا ينمو الفضل إلا مع الأتقياء، فكما أن بركة الطعام في سفر الدنيا مع الجماعة؛ فإن نمو الأجر في القول والعمل لا يكون إلا مع ركب المؤمنين، وزيادة الفضل لا تربو إلا بمسيرة العاملين.

^١ - رواه الترمذي والنسائي وأحمد وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.
^٢ - رواه النسائي وأبو داود وأحمد، واللفظ للنسائي، وقال الألباني: حسن في "صحيح النسائي".
^٣ - القرطبي.

إذا علمت هذا .. علمت أن الجماعة لا تتحقق إلا بأمرٍ أو قائدٍ، وقد جرت سنة الله -تعالى- في كل خلقه بذلك، فلو نظر الإنسان إلى قطعان الماشية لرآها تنقاد خلف واحدٍ منها، ولو أبصر أسرابَ الأسماك في الماء والطيورَ في الهواء لرآها زرافاتٍ^١ ارتضاءً لتطبيق حكمة الله -تعالى-؛ لأن مصالحها لا تتم إلا بهذا الاجتماع ...

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكل بشرٍ على وجه الأرض فلا بد له من أمرٍ ونهي، ولا بد له أن يأمرَ وينهى، حتى ولو كان وحده .. لكان يأمر نفسه وينهاها إما بمعروفٍ وإما بمنكرٍ، كما قال -تعالى-: {نَفْسٌ لَأَمَّا رَأَتْ بِالسُّوءِ} [يوسف: ٥٣]، وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم ببعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد أن يكون بينهما ائتمارٌ بأمرٍ وتناهٍ عن أمرٍ، ولهذا كان أقلُّ الجماعة في الصلاة اثنين، كما قيل: "الاثنان فما فوق جماعة"^٢.

وأما الأمور العادية ففي السنن أنه -صلى الله عليه وسلم- قال: "لا يحل لثلاثة يكونون في سفرٍ إلا أَمَرُوا أَحَدَهُمْ عَلَيْهِمْ"^٣.

ثم أوجب الله على المؤمنين السمع والطاعة لأمرائهم بالمعروف قال -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء ٥٩] .. و"أولو الأمر" هم السلاطين والأمراء، وقال بعض المفسرين: هم أهل العلم والفقه.

والطاعة لا تكون إلا في المعروف، إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق .. فقد ثبت في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نزل قوله -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء ٥٩] في عبد الله بن حذافة السهمي، بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ فِي سَرِيَّةٍ. وثبت في الصحيحين أيضاً في حديث الأعمش عن سعيد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي -رضي الله عنه- قال: قال -صلى الله عليه وسلم-: "لو يعلمُ الناس ما في الوَحْدَةِ ما أعلم ما سار راکبٌ بلبيلٍ وحده" رواه البخاري.

وقال أيضاً -صلى الله عليه وسلم-: "الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة رهط"^٤. فإذا كان هذا هو الأمر في عملٍ دنيويٍّ كالسفر .. فكيف بالسفر المعنوي كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل في سبيل الله والسعي للعمل والقيام بحقوق الناس، والجهاد في سبيل الله ففي كل هذه الأمور قد ينفرد الشيطان بالإنسان وحده.

١ - أي جماعات.
٢ - رواه ابن ماجة بلفظ "اثنان فما فوقهما جماعة"، وقال الألباني: ضعيف "ضعيف ابن ماجة"، واستعمله البخاري ترجمة، وأورد في الباب ما يؤدي معناه حيث روى بسنده إلى مالك بن الحويرث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ قَادَتَا وَأَقِيمَا ثُمَّ لِيُؤْمَكُمَا أَكْبَرُكُمَا.
٣ - رواه أبو داود بلفظ: "إِذَا كَانَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤْمَرُوا أَحَدُهُمْ"، وقال الألباني: حسن صحيح "صحيح أبو داود".
٤ - رواه الترمذي وأحمد ومالك، بلفظ: "الرَّكَّابُ شَيْطَانٌ وَالرَّكَّابَانِ شَيْطَانَانِ وَالثَّلَاثَةُ رَهْطٌ"، وقال الترمذي: حديث حسن.



وكلما ازداد عدد الجماعة كان فضح الشيطان أسهل وسد المنافذ عليه أيسر، فقد ورد في الحديث: "عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بُحْبُوحَةَ الجنة فليلزم الجماعة"^١.

قال ابن خويزمنداد في أحكامه: "والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه؛ فواجب على العالم أن يُعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغني بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة" **المؤمنون تنكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**.. ويجب الإعراض عن المتعدي وترك النصرة له وردّه عما هو عليه ..

ولقد نقل القرطبي -رحمه الله- كلاماً لأحد وعَظَ مصرَ عام ٤٦٩ للهجرة، حيث نوّه الواعظ كيف نال كلبُ أهل الكهف فضلَ ذكره في القرآن الكريم فقال: "إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم - كلبُ أحب أهل الفضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله"..^٢ ثم قال: "إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العالية بصحبة ومخالطة الصلحاء الأولياء حتى أخبر الله -تعالى- بذلك في كتابه -جل وعلا-، فما ظنك بالمؤمنين الموحّدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين، بل هذا تسليّة للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال"^٣.

وقد استعمل رسول الله رجلاً من الأنصار على سرية، بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، قال: فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطباً فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها. قال: فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله من النار. فسكن غضبه وطُفئت النار، فلما قدّموا على رسول الله ذكروا ذلك له فقال: **"لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف"**^٤.

(فإن قيل: فلو دخلوها طاعةً لله ورسوله في ظنهم؛ فكانوا متأولين مخطئين فكيف يُخلّدون فيها؟ قيل: لما كان إلقاء نفوسهم في النار معصيةً يكونون بها قاتلي أنفسهم، فهموا بالمبادرة إليها من غير اجتهاد منهم: هل هو طاعةً وقربةً أو معصيةً؟ كانوا مُقَدِّمين على ما هو محرّمٌ عليهم ولا تَسَوُّغُ طاعةٍ ولي الأمر فيه؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فكانت طاعة من أمرهم بدخول النار معصيةً لله ورسوله، فكانت هذه الطاعة هي سبب العقوبة؛ لأنها نفس المعصية، فلو دخلوها لكانوا عصاةً لله ورسوله وإن كانوا مطيعين لولي الأمر، فلم تدفع طاعتهم لولي الأمر معصيتهم لله ورسوله، لأنهم قد علموا أن من قتل نفسه فهو مستحقٌ للوعيد، والله قد نهاهم عن قتل أنفسهم، فليس لهم أن يُقدِّموا على هذا النهي طاعةً لمن لا تجب طاعته إلا في المعروف، فإذا كان هذا حكم من عذب نفسه طاعةً لولي الأمر، فكيف من عذب مسلماً لا يجوز تعذيبه طاعةً لولي الأمر؟)

^١ - رواه الترمذي والنسائي وأحمد وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

^٢ - القرطبي.

^٣ - متفق عليه، واللفظ لمسلم.

^٤ / زاد المعاد



فهي طاعةٌ تبغي أن تصيب هذا الصفاء، وتُنسب صاحبها إلى هذه الزمرة الفائزة، من الإيمان تنطلق.. ويقواعده تسترشد.. وإليه تعود.. وليست هي استكانة خاضعٍ راهب، ولا تَمَلُّق طامعٍ مصلحي راغب، إنما طاعةٌ إسلاميةٌ مميزةٌ ليست ككل طاعةٍ، يَعُدُّها الدعاة ركنًا في إيمانهم لا كمال له بدونها وَيَعْتَرِيهِ النقصُ بفقدانها.

قومٌ يرون الحقَّ نصرَ أميرهم * ويرون طاعةَ أمره إيماناً

وفي الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال في صفة أول زمرة تلج الجنة: " لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلبٌ واحد"¹.

فإن طاعةَ الأمير من أوجب الواجبات التي فرضها الله على عباده.. كيف لا وهي رأس المال وأُسُ البناء الذي تقوم عليه الجماعةُ المسلمة؟

بل لن تقوم قائمةٌ لأية جماعةٍ تعمل في سبيل الله إلا بالالتفاف حول قيادتها، وهذا الأمر - طاعة الأمير - من أكبر عوامل النصر؛ لذا غلظ الشرع الحنيف في الخروج على ولاة الأمور بغير حق، وعظَّم العقوبةَ على ذلك.

واقراً حديثَ النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني"².

فأمراً بهذه الخطورة حريٌّ بنا أن نتبصرَ به وأن نبالغَ في فهمه ومعرفة واجباته ومحذوراتِه...

¹ متفق عليه.

² متفق عليه ، واللفظ للبخاري.



صورٌ في وجوب السمع والطاعة

* الطاعة واجبة في المنشط والمكروه.

عن جنادة بن أبي أمية قال: ((دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، قلنا: أصلحك الله، حدث بحديث ينفعك الله به، سمعته من النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: دعانا النبي -صلى الله عليه وسلم- فبايعناه، قال فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعُسْرنا ويُسرنا وأثره علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً، عندكم من الله فيه برهان^١)).

فهذا حديثٌ يوجب طاعة الأمير في المنشط والمكروه، فقد ينشط الإنسان فيما يؤمر به إذا كان ذلك يوافق هواه، وهذا يؤجر المرء عليه ولا غصاصة.. ولكن المقياس يكون في الطاعة في المكروه.. فإن النفوس جُبِلَتْ على الدعة والراحة وإيثار السلامة..

قال -سبحانه-: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} [البقرة: ٢١٦]، فأرغام النفس وحملها على المكروه من العمل الصالح أو على المكروه مما تؤمر به هو المعيار الحقيقي لصدق إيمان المرء..

وقد مدح الله -سبحانه تعالى- هذا الصنف من المؤمنين فقال: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ} [آل عمران: ١٧٢]، وقال -سبحانه-: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ١١٧].

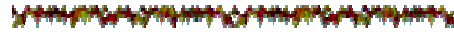
وروى البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً: "طوبى لعبدٍ آخِذٍ بَعَنانِ فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة". .. فهذا العبدُ عمل حيث وضعه أميره، وسواء عنده أكان حارساً أو سائقاً في مؤخرة العسكر لم يَضْجَر ولم يتأفف.. فاستحق بذلك ثناء النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية: "لما تولى عمر بن الخطاب الخلافة عزل خالد بن الوليد عن إمرة الجيش؛ وكتب إلى أبي عبيدة -رضي الله عنه-: فانزع عمامته عن رأسه، وقاسمه ماله نصفين.. قال ابن كثير: فقاسمه أبو عبيدة حتى أخذ إحدى نعليه وترك أخرى وخالد يقول: سمعاً وطاعة لأمرير المؤمنين".



بل تأمل علياً - رضي الله عنه - عندما بعثه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى خيبر وقال له: "امش، ولا تلتفت" ^١ فلما ولّى ناداه النبي - صلى الله عليه وسلم - ... فأجابه ولم يلتفت.

توقير الأمير



مما يجب على الأفراد في الجماعة من حقوق الأمير عليهم تعزيده ^٢ وتوقيره؛ فعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "خمسٌ من فعل واحدةٍ منهن كان ضامناً على الله - عز وجل -: من عاد مريضاً أو خرج مع جنازةٍ أو خرج غازياً أو دخل على إمامه يريد تعزيده وتوقيره، أو قعد في بيته فسَلِمَ الناس منه وسَلِمَ من الناس" ^٣.

قال صاحب العمدة: [وإهانة ولي الأمر قد تكون بعصيان أو امره والاستخفاف به، أو بالسخرية من الأمير بالقول والغمز واللمز، أو بوصفه بصفةٍ خُلُقِيَّةٍ أو خَلْقِيَّةٍ فيه تدعو للاستخفاف به، أو بمدح غيره بما فيه تعريضٌ بالذم لهذا الأمير، أو تشجيعٌ للآخرين على إهانة الأمير وعصيانه، وعموماً يدخل في الإهانة كل ما فيه انتقاصٌ لقدر الأمير وتجريحه.. فقد أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بطاعة الأمير وإن كان عبداً حبشياً مُجَدَّعَ الأطراف... فمن أقدم على إهانة الأمير فقد تعرض لإهانة الله له في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالعذاب.

وعن أبي بكرٍ قال: "من أَجَلَ سلطان الله أجله الله يوم القيامة" ^٤؛ وهذا ينطبق على كل من تولى إمارةً على غيره إذ أنه أميرٌ بحكم الشريعة...

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيره يقولون: لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان).

تنبيه:

ولا يَظُنُّ أحد أننا بدعوتنا الرعية إلى توقير الأمير ندعو بذلك إلى تقديسه، وإنما ندعو إلى الوسط كما هي دعوة الإسلام في كل أمر، فتوقير الأمير وسطٌ بين تفريطٍ وإفراطٍ؛ فأما التفريط فهو إهانة الأمير التي وردت السنة بالنهي عنها والوعيد عليها، وذكرنا بعضَ صور الإهانة فيما سبق.. وأما الإفراط في توقير

^١ - رواه مسلم وأحمد، والنسائي في "السنن الكبرى" واللفظ لمسلم.
^٢ - التعزير لغة من الكلمات المتضادة التي تأتي بمعنى الاحترام والتقدير وبمعنى العقوبة، والمراد بها هنا الأول.
^٣ - المعجم الكبير للطبراني، وصححه الألباني "صحيح الترغيب والترهيب"، "صحيح الجامع الصغير".
^٤ - السنة لابن أبي عاصم، وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة"، "صحيح الجامع الصغير".



الأمير فهو أيضا منهي عنه ومذموم؛ ومن صورته السكوت عن منكرات الأمير، وأدهى من ذلك تبرير منكراته وتأويلها على وجه حسن، والمغالاة في مدحه، وخلع ما لا يجوز من الصفات عليه، فتوقير الأمير ليس مقصودا لذاته، بل من أجل المحافظة على وحدة الجماعة المسلمة، وهذا مقصد شرعي وسد لذريعة العصيان والشقاق]. (انتهى كلام صاحب العمدة)

وَيُجَلِّي لك خطورة هذا الأمر هذا الحديث العظيم الذي رواه مسلم عن عوف بن مالك قال: قَتَلَ رجلٌ من "حمير" رجلا من العدو فأراد سَلْبَهُ، فَمَنَعَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَكَانَ وَالِيًّا عَلَيْهِمْ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ خَالِدٌ: "مَا مَنَعَكَ أَنْ تَعْطِيَهُ سَلْبَهُ؟" قَالَ: اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ.. قَالَ: "ادْفَعْهُ عَلَيْهِ".. فَمَرَّ خَالِدٌ بِعَوْفٍ فَجَرَّ بَرْدَانَهُ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتَ لَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟ فَسَمِعَهُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَاسْتَغْضَبَ فَقَالَ: "لَا تَعْطُهُ يَا خَالِدُ لَا تَعْطُهُ يَا خَالِدُ".. ثُمَّ قَالَ: "هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمْرَائِي؟ إِنَّمَا مِثْلُكُمْ وَمِثْلُهُمْ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَرَعَى إِبْلًا أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا فَشَرَعَتْ فِيهِ فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ وَتَرَكْتَ كَدْرَهُ؛ فَصَفَّوْهُ لَكُمْ وَكَدَرَهُ عَلَيْهِمْ".

فانظر يا أخا التوحيد إلى فعل النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بأن مَنَعَ صاحب السلب سلبه؛ لأنه رأى في ذلك ذريعة للتطاول والتجرؤ على الأمير.. ومع أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: "مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلْبُهُ"¹..



حسن الظن بالأمير



اعلم يا أخا التوحيد أن هذا الباب من أعظم الأبواب وأخطرها
قال - سبحانه -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢].
وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "ياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث". متفق عليه.
فقد أمرنا الله ورسوله بإحسان الظن بالمسلمين عامة، وما ذلك إلا لعظمة حرمة المؤمن عند الله.. وحفظاً
للفص المسلم من الزلل والخلل، وصوناً له من الأمراض التي تؤدي إلى حلول الهزيمة بالمسلمين وارتفاع
التأييد والنصر عنهم.

قال - تعالى -: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: ٤٦] فأى فشل وأي ذهاب للريح أكثر
من انتشار سوء الظن والتباغض والتباعد بين المسلمين؟

فإن كان هذا بين عامة المسلمين فكيف إن كانت إساءة الظن بولاية الأمور؟؟
فمن المعلوم بداهة أن إرضاء الناس في كل شيء غاية لا تدرك، فاعلم يا أخا التوحيد أن أي أمير عامة
لا بد أن يحاط بالنصح والشفقة لعظم الأمر الذي وكل به؛ فالإمارة تكليف لا تشريف، وكلها منعصات
وهموم وغموم.

فمثل الأمير كممثل ربان سفينة في بحر متلاطم الأمواج يسدد ويقارب ويوازن حتى يصل بها إلى بر
الأمان وينجو بإخوانه.. فهو مسؤول عن كل فرد من أفراد رعيته، ينظر بأعينهم ويسمع بآذانهم، ويهتم
لمومهم، ويفرح لأفراحهم، فحاله هذه تتطلب من أفراد الشفقة عليه، وحسن الظن به، وإعانتة على
طاعة الله.

والأمير غالباً ما يكون مُطلِعاً على أمور الرعية الخافية عن بقية الأفراد، وهو صِمَام أمان الجماعة
وصندوق أسرارها، فقد يرى رأياً أو يتخذ قراراً يرى غيره خلافه؛ لجهلهم بجوانب يعلمها هو دونهم،
والمعترض قد ينظر من جانب واحد أو زاوية ضيقة قاصرة، بينما الأمير ينظر من عدة جوانب وزوايا،
ويدرك أموراً كثيرة تخفى على بعض المعترضين، ومن المصلحة مثلاً ألا يُظهر تلك الجوانب لأولئك
المعترضين (حفاظاً على الجانب الأمني للجماعة مثلاً).

ومثال ذلك ما ورد عن عمرو بن العاص أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمره في غزوة ذات السلاسل، فَمَنَعَ الناس أن يوقدوا ناراً ثلاثاً، قال: فكَلَّمَ الناس أبا بكرٍ، قالوا: كلمه لنا، فأُتاه، قال: قد أرسلوك إليّ، لا يوقد أحد ناراً إلا ألقىته فيها!

ثم لَقُوا العدو فهزموهم، فلم يَدْعُهُم يطلبون العدو، فلما رجعوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، أخبروه الخبر وشكّوا إليه، فقال: يا رسول الله كانوا قليلاً فكرهت أن يطلبوا العدو، وخِفْتُ أن يكون لهم مَادَّةٌ فَيُعْطِفُونَ عليهم، فحمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمره -، وفي رواية فقال عمرو: هَمَيْتُهُمْ أن يوقدوا ناراً خشية أن يرى العدو قَلَّتَهُمْ^١.

وهذا الحديث فيه جواز إمارة المفضول كَعَمْرٍو على من هم خيرٌ منه كأبي بكرٍ للمصلحة، وفي الحديث شكايَةُ الجند أميرهم عند الإمام، وفيه وجوب طاعة الأمير في تقييده المباح كإيقاد النار، وطاعةُ الأمير ولو كان أمره بخلاف المصلحة أو الواجب الأولى، كمنعهم من اتباع العدو الفار خشية أن يأتيه المدد^٢.

فالحذرُ الحذرُ يا إخوة التوحيد والإيمان من هذه المخاذير، فوالله لأن يُخطئ الأميرُ في أمرٍ اجتهدادي ليس فيه معصيةٌ أقلُّ ضرراً من أن يُتَّهَمَ الأميرُ بسوء التدبير، فَيَتَّبَعَ ذلك المناجاةُ والتجرؤُ ثم الفرقة والشقاق. وإن طاعتك لأَمِيرِكَ في أمرٍ اجتهدادي ترى أنت خلافةً خيراً منه، طاعتك هذه أقرب إلى النصر الذي يُعْقِبُهُ الله - عز وجل - بسبب هذه الطاعة التي تحفظ وحدة الصف المسلم والعقيدة بإذن الله؛ فكم فُتِحَتْ أبوابٌ من الشر مستطيرةً على المسلمين بسبب الإخلال بهذا الباب^٣.

يقول صاحب العقد الفريد: "شأن الرعية قلة الرضا عن الأئمة، وتحجر العذر عليهم، وإلزام اللائمة لهم، فَرُبَّ مَلُومٍ لا ذنب له، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة؛ إذ كان رضا جملتها وموافقة جماعتها من المُعْجَزِ الذي لا يُدْرَك، والممتنع الذي لا يُمْلِك، ولكل حصته من العدل، ومنزلته من الحكم".

^١ - [قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني بإسنادين رجال الأول رجال الصحيح].

^٢ - العمدة في إعداد العدة

^٣ - فعلى الرعية أن يحسنوا الظن بأمرهم "ما لم يتنازل عن الثواب الشرعية المنهجية للجماعة المسلمة المجاهدة كالولاء والبراء والعداوة والبيغضاء لأعداء الله - تعالى - حتى يؤمنوا بالله وحده، ودون التوسع في أبواب السياسة الشرعية كما فعلت كثير من الجماعات المعاصرة التي هدمت بتأويلاتها الفاسدة واستصلاحاتها المنحرفة أصولاً عظيمة من أصول الدين... فالعبرة بهدي النبي - صلى الله عليه وسلم - وصحبه".

الإشاعة وأثرها على الصف المسلم

الإشاعة في اللغة هي الإظهار والنشر، وذلك يكون بما هو صادق، وبما هو كاذب، ولكن العُرف قَصَرَهَا على الأخبار التي لم يَثْبُت صِدْقُهَا بعد، ويُقال لها: "الأراجيف"، واحداً "إرجاف"، وأصل الرَّجَف الحركة والاضطراب، والإشاعة فيها هذا المعنى، وأكثر ما يحمل على الإشاعة الكراهية لمن يُشاع عنه، أو حُب الظهور بالسبق إلى معرفة ما لا يعرفه غيره، أو التسلية، أو التنفيس عن النفس فيما حُرِمَتْ منه، وتكثر أيامَ الأزمات السياسية والاقتصادية والحربية حيث يكون الجو ملائماً لرواجها.

وللإشاعة آثارها الضارة؛ من بَلْبَلَةِ الأفكار، والفتنة بين الناس، وتشويه سمعة البراء، كما أشاع المشركون على الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأنه ساحرٌ كذابٌ، وأنه شاعرٌ أو كاهنٌ أو مجنونٌ، وكما أشاعوا في غزوة أحد أنه قُتِلَ؛ لتخذيل أصحابه.

قال -تعالى-: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ٨٣].

"الصورة التي يرسمها هذا النص هي صورة جماعة في معسكر إسلامي لم تألف نفوسهم النظام، ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر وفي النتائج التي ترتبت عليها، فقد تكون قاصمة؛ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ولم يدركوا جدية الموقف، وإن كلمةً عابرةً وفتنةً لسانٍ قد تجر من العواقب على الشخص ذاته وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال، وما لا يتدرك بعد وقوعه بحال، أو ربما لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر، وهكذا لا يعيهم ما يقع له من جرّاء أخذ كل شائعةٍ والجري بها ههنا وهناك وإذاعتها حيث يتلقاها لسانٌ عن لسان، سواء كانت إشاعةً أمنٍ أو إشاعةً خوف، فكلتاها قد يكون لإشاعتها خطورةً مدمرة؛ فإن إشاعة أمر الأمن مثلاً في معسكرٍ متيقظٍ متوقعٍ لحركة العدو إشاعة أمر الأمن في مثل هذا المعسكر تُحدث نوعاً من التراخي مهما تكن الأوامر باليقظة؛ لأن اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر، وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية، وكذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن بقوته ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة، قد تُحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكاً وحركاتٍ لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف، وقد تكون كذلك القاضية.

وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته أو هما معاً، ويبدو أن هذه السمة وتلك كانتا واقعيتين في المجتمع المسلم حين ذاك باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات في

الإيمان، ومختلفة المستويات في الإدراك، ومختلفة المستويات في الولاء، وهذه الخلخلة هي التي يعالجها القرآن بمنهجه الرباني. والقرآن يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣] "فمهمة الجندي الطيب في الجيش المسلم الذي يقوده الأمير المؤمن - بشرط الإيمان ذاك وحده - حين يبلغ إلى أذنيه خبرٌ أن يسارع فيخبر به نبيه أو أميره لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه أو بين من لا شأن لهم به؛ لأن قيادته المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة، كما تملك تقدير المصلحة في إذاعة الخبر - حتى بعد ثبوته - أو عدم إذاعته".^١

وقال سيد - رحمه الله - عند قوله - تعالى -: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: ١٥] قال: "وهي صورةٌ فيها الخفة والاستهتار وقلة التخرج وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام.

{إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ} لسانٌ يتلقى عن لسانٍ بلا تدبرٍ ولا تروٍّ ولا فحصٍ ولا إمعانٍ نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الأذان ولا تتملاه الرؤوس ولا تتدبره القلوب! {وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ} لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبيكم! إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه قبل أن تستقر في المدارك وقبل أن تتلقاه العقول...^٢

وهنا لفتة جميلة أحببنا أن نشير إليها وهي في قوله - تعالى -: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ} إذ أنه من المعلوم أن التلقي يكون بالأذن ابتداءً، ثم يُعرض على العقل ثم ينطق به اللسان، والتلقي بالألسن المشار إليه في الآية كناية عن الخفة والطيش والتسرع.

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

"أَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ مُسْلِمٍ بِكَلِمَةٍ هُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ يُشِينُهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُذَيِّبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ حَتَّى يَأْتِيَ بِنَفَادٍ مَا قَالَ" رواه الطبراني بإسناد جيد..

^١ - في ظلال القرآن.

^٢ - في ظلال القرآن.

نصيحة الأمير

الأمراء والأئمة هم أولى الناس بالنصح والإرشاد؛ لما في نصحتهم من صلاحٍ وسدادٍ للأمة عامة وللجماعات المجاهدة خاصة، فمن الواجب تذكيرهم بالحق والدعاء لهم بالخير، وإعانتهم على الحق. روى مسلم عن تميم الداري قال: قال -صلى الله عليه وسلم-: "الدينُ النصيحة؛ قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"..¹

وروى مسلم عن أنس قال: قال -صلى الله عليه وسلم-: "ثَلَاثٌ لَا يُغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمَنَاصِحَةُ وَلَاةِ الْأُمُورِ، وَلِزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنْ دَعَوْتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ".
"فالأصل في الأمير المسلم الصالح طلب النصيحة وقبولها، ورحم الله عمرَ بنَ عبد العزيز عندما كان يقول لمولاه "مزاحم": "إن الولاية جعلوا العيون على العوام وأنا أجعلك عيني على نفسي فإن سمعت مني كلمةً تَرَبُّأُ بي عنها أو فعلاً لا تُحِبُّهُ فِعْظِي عنده وانْهَيْ عنهُ".
وقال الشافعي -رحمه الله-: "ما نصحتُ أحداً فقبلَ مني إلا هَبَّتْهُ واعتقدتُ ولايته، ولا رَدَّ أحدٌ عليَّ النصحَ إلا سَقَطَ من عيني ورفضته".

قال صاحب العمدة: "قال النووي: (وأما النصيحة لأئمة المسلمين: بمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتأليف قلوب المسلمين لطاعتهم، قال الخطابي: ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيفٌ أو سوءُ عشرة، وأن لا يُغرَّوا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يُدعى لهم بالصلاح، وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات، وهذا هو المشهور) صحيح مسلم بشرح النووي".

ومما يدخل في النصح: الإشارة على الأمير بما يخفى عليه من الأمور التي يحيط بها غيره.
ومما يدخل فيه أيضاً إخبار الأمير بكل ما يؤدي إلى إفساد الجماعة أو تفريق شملها، كوجود بعض العناصر السيئة أو المفسدة، ونحو ذلك.

وعلى الأمير الثبوت والتحقق قبل التصرف، لقوله -تعالى-: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦]؛ وفي قراءة متواترة "فتثبتوا"، ودليل هذا ما يلي:

¹/عيون الاخبار.

* ما ذكره ابن كثير في تفسيره لقوله - تعالى - { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } [التوبة: ٦٥]. قال: "قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيْتُ مثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بَطُونًا وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا وَلَا أَجَبْنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ. فقال رجل في المسجد: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ وَلَاخْبَرَنَ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -" وموضع الاستشهاد هو قول الصحابي للمنافق "ولأخبرن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -" فهذا من النصح للأئمة وليس من الغيبة."

وقال صاحب العمدة أيضاً: (وفي حديث عمر بن الخطاب في الرجم، ورد في سياقه أن رجلاً أتى عمرَ فقال له: (إن فلاناً يقول: لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلاناً فقال عمر: لأقومن العشية فأحذر هَؤُلَاءِ الرهط الذين يريدون أن يَغْصِبُوهم) رواه البخاري.. قال ابن حجر في شرحه: (وفيه جوازُ إخبار السلطان بكلام من يُخشى منه وقوع أمرٍ فيه إفسادٌ للجماعة، ولأيعدُّ ذلك من النميمة المذمومة) فتح الباري.

وقال أيضاً: "لا تَعَارِضَ بَيْنَ مَا ذَكَرْتُهُ آنفًا مِنْ إِبْلَاحِ الْأَمِيرِ بِأَمْرٍ مِنْ يُحْدِثُ فِتْنَةً أَوْ فُسَادًا فِي الصَّفِّ وَبَيْنَ حَدِيثِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - : (لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ)¹ ... فإن حديث ابن مسعود هذا هو الأصل، وقد أورده النووي في "رياض الصالحين" في باب "النهي عن نقل الحديث وكلام الناس إلى ولاية الأمور إذا لم تدعُ إليه حاجةٌ كخوف مفسدةٍ ونحوها" فالأصل هو النهي عن نقل أحوال الناس إلى ولاية الأمور، والاستثناء من هذا الأصل هو إذا دعت الحاجة إلى نقل أحوالهم لدرء المفاصد والفتن وكشف المُفسدين، وقد ذكرت أدلة هذا (آنفاً).

بل قد قال ابن حجر: "ونقل ابن التين عن أشهب أنه ينبغي للحاكم أن يتخذ من يستكشف له أحوال الناس في السر، وليكن ثقةً مأموناً فطناً عاقلاً؛ لأن المصيبة إنما تدخل على الحاكم المأمون من قبول قول من لا يوثق به إذا كان هو حسن الظن به، فيجب عليه أن يتثبت في مثل ذلك".²

والأفضل نصح الأمير سرّاً

* ودليل ذلك ما رواه ابن أبي عاصم في كتابه "السنة": باب "كيفية نصيحة الرعية للولاة" ... قال عياض بن غنم لهشام بن حكيم: ألم تسمع بقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((من أراد أن ينصح ذي السلطان فلا يُبْدِه علانية، ولكن يأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه))³.

* وهناك دليل آخر على نصح الأئمة سرّاً، وهو ما رواه البخاري عن أبي وائل قال: "قيل لأسماء: ألا تُكَلِّم هذا؟ قال: قد كَلَّمْتُهُ ما دونَ أَنْ أَفْتَحَ باباً أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفْتَحُهُ، وما أنا بالذي أقول لرجل بعد أن يكون أميراً على رجلين: "أنت خير" بعد ما سمعت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "يجاء

¹ رواه الترمذي وأبو داود وأحمد، وقال الألباني: ضعيف. "ضعيف أبو داود"، "ضعيف الترمذي"، "ضعيف الجامع الصغير".

² فتح الباري: ١٢ / ١٩٠.

³ كتاب السنة ص ٥٢١: ح ١٠٩٦ لابن أبي عاصم ط: المكتب الاسلامي. وصححه الألباني في "طلال الجنة".



برجل فَيَطْرَحُ في النار فَيَطْحَنُ فيها كما يطحن الحمار بِرَحَاةٍ، فَيَطِيفُ به أهل النار فيقولون: أي فلان، أَلَسْتَ كُنْتَ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: إني كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله^١

وقولهم: "ألا تكلم هذا؟" وقع عند مسلم: "ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟" وكان هذا سبب ما أنكره بعض الناس على الخليفة عثمان بن عفان -رضي الله عنه-. قال ابن حجر: قوله "قد كلمته ما دون أن أفتح باباً" أي: كلمته فيما أشرتم إليه، لكن على سبيل المصلحة والأدب في السر بغير أن يكون في كلامي ما يُشير فتنه أو نحوها.

وقال أيضاً صاحب العمدة: (والذي أراه -والله أعلم بالحق- أن الإسرار بالنصح للأمير أو الجهر به يتوقف على:

أولاً: حال المنصوح (الأمير) فيختار الناصح أنسب وسيلة حسب حال المنصوح وما يَقْبَلُهُ.

ثانياً: حال الموجودين: فقد يكون نصحه سراً أولى حتى لا يَجْتَرِيَّ الناسُ على الأمير فتقع فتنَةٌ وتَفْتَرَقَ الكلمة، كما فعل أسامة بن زيد مع عثمان بن عفان -رضي الله عنهم-، وقد يكون الجهر بالنصيحة أفضل حتى يسمع الناس فينتصحو بنفس النصيحة كما في نصح "أبي شريح" بشأن تحريم مكة لِكُفِّ الناس عن الخروج في جيش الأمير الذاهب للقتال في مكة. وهكذا.

ثالثاً: حال الناصح: ألا يقوم مقام رياءٍ وسمعةٍ بنصحه، ليقال عنه: هذا الذي نصح الأمير عندما سكت غيره، وتحضرني هنا قصة شكاية أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص لعمر بن الخطاب. قال ابن كثير: "وفيها - سنة ١٦هـ - شكوا أهل الكوفة سعداً في كل شيء، حتى قالوا: لا يُحْسِنُ يصلي، فعزله عنها. إلى أن قال ابن كثير: وفي صحيح مسلم أن عمر بعث من يسأل أهل الكوفة فأثنوا خيراً إلا رجلاً يقال له: أبو سعدة قتادة بن أسامة قام فقال: أما إذ أنشدتنا فإن سعداً لا يقسم بالسوية ولا يَعدُلُ في القضية، ولا يخرج في السرية، فقال سعد: اللهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياءٍ وسمعةٍ فَأَطِلْ عمره وأدِمْ فقره وعَرِّضْهُ للفتن. فأصابته دعوة سعد، فكان شيخاً كبيراً يرفعُ حاجبيه عن عينه، وَيَتَعَرَّضُ للجواري في الطرق فيغمزهن، فيقال له في ذلك؟ فيقول: شيخ كبير مفتون أصابته دعوة سعد. وقد قال عمر في وصيته -وذكره في الستة- "فإن أصابت الإمرة سعداً فذاك، وإلا فليستعن به أيكم ولي، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة"^٢

^١ - صحيح البخاري: ٧٠٩٨.

^٢ - البداية والنهاية: ٧ / ١٠١.



التناجي وخطورته

يحرص الإسلام على الرقي بأفكار المؤمنين والسمو بأحاديثهم ومجالسهم نحو الأحسن والأفضل، لذا ينهاهم الله - تعالى - عن التعرض في مجالسهم إلى ما فيه أذى للناس في أعراضهم، أو اعتداءً على كرامتهم، وينهاهم عن الخوض فيما يؤدي الرسول أو يكون مقدمة لمخالفته.

ويعطي الإسلام للوقت قيمةً غاليةً ثمينةً يحرص على عدم هدره، وذلك بدعوة المؤمنين لأن تكون مجالسهم جادةً تثمر ما فيه خير البلاد والعباد، فوَاحَةً بعقب الإيمان والرياحين الربانية، زاخرة بكل ما فيه شدةً لهمم والعزائم إلى المزيد من الطاعات والأخلاق الحميدة.

ويهدف الإسلام إلى تقوية الصف، وجمع الكلمة حتى يظل المسلمون قوةً وقُدًى في عيون أعدائهم، وسبيله في ذلك محاربة كل ما يؤدي إلى الفرقة والتدابير والنقاط من النجوى إلى الظن إلى التجسس إلى الغيبة إلى الحسد إلى البغض...

ومبدأ الشر الذي يؤجج نار الفتنة ويُذكيها هو النجوى؛ والنجوى هي الحديث الخافت الذي يدور بين اثنين على الأغلب.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ إِلَّا يَأْذَنُ؛ فَإِنْ ذَلِكَ يَجْزُنُهُ".

فالصواب - إن شاء الله تعالى - أن يراعي الناصح هذه الأحوال، ثم يتخير الأسلوب الأنسب: الأسرار أو الجهر، فإن التَّبَسُّ عليه الأمر فالإسرار أولى - إن شاء الله تعالى -؛ لحديث عياض بن غنم المذكور في أول هذه المسألة؛ ولقصة أسامة بن زيد مع عثمان بن عفان - رضي الله عنهم -.

واعلم - رحمك الله - بأن التناجي بين أفراد الجماعة دون علم القيادة هو منشأ الشر في الجماعة المسلمة، وهو الباب الواسع الذي يُلجُّ منه الشيطان ليمزق أوصال تلك الجماعة.

ولقد تنبه بعض المفسرين لهذا المعنى من آية البقرة: { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ } [البقرة: ٢٠٥]... فنظروا إلى ما تُوحِيه كلمة السعي من النشاط والمشي السريع والعمل الدؤوب فقالوا: (والسعي في الأرض المشي بسرعة، وهذا عبارة عن إيقاع الفتنة والتضريب بين الناس)^١.

وعند الطبراني أن رجلاً قال لعلي -رضي الله عنه- معترضاً على نصحه ودعوته للخير ووحدة الجماعة: (إنك -والله- ما هميتنا ولكنك أمرتنا وذرمتنا، فلما كان فيها ما تكره، برأت نفسك ونحللتنا ذنبك)... قال له علي -رضي الله عنه-: وما أنت وهذا الكلام -قبحك الله-، والله لقد كانت الجماعة فكتت فيها خاملاً، فلما ظهرت الفتنة نجمت فيها نجوم قرن الماعز^١.

فهم -أي أهل التاجي- عيابون طعانون، يلبسون قليل الحق بكثير الباطل، ويكتمون الكثير من الخاسن، ولا تنجو روايتهم من التدليس، ويسبون تفسير المواقف، ويتأولون الألفاظ، ويفسرون البسمة بالتهكم، والزهد بالبخل، والشجاعة بالتهور، وهذه المظاهر سلف من أول فتنة في الإسلام، حيث وصفها الخليفة الراشد عثمان -رضي الله عنه- كما في رواية الطبري: (أما بعد: فإن لكل شيء آفة، ولكل أمر عاهة، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون، يروونكم ما تحبون ويسرون لكم ما تكرهون، يقولون لكم ويقولون، أمثال النعام يتبعون أول ناعق، أحب مواردها إليها البعيد، لا يشربون إلا نغصاً^٢، ولا يردون إلا عكراً^٣، ولا يقوم لهم رائد، وقد أعيتهم الأمور، وتعذرت عليهم المكاسب).

فانظر -رحمك الله- إلى خطورة هذا الأمر كيف نشأ من تاجي فنة قليلة، ثم بدأ بالتحزب والاتساع حتى أطلت الفتنة برأسها، وبدأ يتسع الخرق على الرافق، مما أدى إلى الانشقاق والتحزب والجرأة على رأس الإسلام في ذلك الزمان، ذي النورين -رضي الله عنه-؛ مما أدى إلى قتله في عُقر داره في مدينة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فوالله إن البدن ليقشع^٤ من هول هذه المصيبة التي كان أصحابها يُظهرون إرادة الخير في تلك الاعتراضات، وأن عثمان -رضي الله عنه- خالف سنة صاحبيه -رضي الله عنهما- من قبل.

فالحدّر الحدّر يا أبا التوحيد من هذه المزالق والمحاذير، فهي -والله- من مهلكات هذا الدين... كيف لا وصاحبها يكون في صف المنافقين والعياذ بالله؟

قال -تعالى-: { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } [الكهف: ١٠٤، ١٠٣].

ومن أروع ما نختم به هذا الباب.. كلام لسيد قطب -رحمه الله- في تفسير قوله -تعالى- { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [المجادلة: ٩]

يقول سيد :

^١ - الطبراني في "المعجم الكبير"، وقال الذهبي في "تاريخ الإسلام": [ما أحسنها لولا أنها منقطعة السند]، وقال الهيثمي: [ومحمد بن الضحاك وولده يحيى ولم أعرفهما]. والذمير الخت مع لوم واستيطاء، ويأتي بمعنى التهديد.

^٢ - إشارة إلى أنهم لا يتيم مرادهم. [ويجتملى معنى آخر]

^٣ - الفكر يفتح من خثر ورسب من الزيت ونحوه؛ إشارة إلى أنهم يقصدون الأشياء السيئة. [وتجتملى معنى آخر].

^٤ - أي أنهم لا يستطلعون الأمور فهو كناية عن تعجلهم.

"ويبدو أن بعض المسلمين ممن لم تنطبع نفوسهم بعدُ بحاسّة التنظيم الإسلامي، كانوا يتجمعون عندما تُخزَّبُ الأمور؛ ليتناجوا فيما بينهم ويتشاوروا بعيداً عن قيادتهم، الأمر الذي لا تُقرُّه طبيعة الجماعة الإسلامية، وروح التنظيم الإسلامي التي تقتضي عَرْضَ كل رأي وكل فكرة وكل اقتراح على القيادة ابتداءً، وعدم التجمعات الجانبية في الجماعة.

كما يبدو أن بعض هذه التجمعات كان يدور فيها ما قد يؤدي إلى البلبلة، وما يؤدي الجماعة المسلمة -ولو لم يكن قصد الإيذاء قائماً في نفوس المتناجين-، ولكن بمجرد إثارتهم للمسائل الجارية وإبداء الآراء فيها على غير علم، قد يؤدي إلى الإيذاء وعدم الطاعة.

وهنا يناديهم الله بصفته التي تربطهم به، وتجعل للنداء وقعاً وتأثيره: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}.. لينهاهم عن التناجي -إذا تناجوا- {بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ}. وبَيِّن لهم ما يُلِيقُ بهم من الموضوعات التي يتناجى بها المؤمنون: {وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى}.. لتدبير وسائلهما وتحقيق مدلولهما. والبر: الخير عامة، والتقوى: اليقظة والرقابة لله -سبحانه-، وهي لا تُوحى إلا بالخير. ويُذكّرهم بمخافة الله الذي يُخشرون إليه، فيحاسبهم بما كسبوا وهو شاهده ومُحصيه مهما سَتَرُوهُ وَأَخْفَوْهُ.

قال الإمام أحمد: حدثنا بجز وعفان، قالا: أخبرنا همام، عن قتادة عن صفوان بن محرز، قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "إن الله يُدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويسُتره من الناس ويُقرّره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يُعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقين فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين".

ثم يُنقَرُّهم من التناجي والمسارة والتجسس بالقول في حُفْيَةٍ عن الجماعة المسلمة التي هم منها، ومصلحتهم مصلحتها، وينبغي أن لا يشعروا بالانفصال عنها في شأنٍ من الشؤون، فيقول لهم: إن رؤية المسلمين للوسوسة والهوس والانعزال بالحديث تَبُثُّ في قلوبهم الحزن والتوجس، وتخلق جواً من عدم الثقة، وإن الشيطان يُغري المتناجين ليحزنوا نفوس إخوانهم ويدخلوا إليها الوسواس والهوس، ويطمئن المؤمنون بأن الشيطان لن يبلغ فيهم ما يريد:

{إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [المجادلة: ١٠].

فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله، فليس وراء ذلك توكل، وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون!

وقد وردت الأحاديث النبوية الكريمة بالنهي عن التناجي في الحالات التي توقع الريبة وتزعزع الثقة وتبعث التوجس، جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يجرئه". وهو أدب رفيع، كما أنه تحفظٌ حكيمٌ لإبعاد كل الريب والشكوك.

فأما حيث تكون هناك مصلحةٌ في كتمان سرٍّ، أو ستر عورة، في شأنٍ عامٍ أو خاص، فلا مانع من التشاور في سر وتكتم يكون عادةً بين القادة المسؤولين عن الجماعة، ولا يجوز أن يكون تجمعاً جانبياً بعيداً عن علم الجماعة؛ فهذا هو الذي نهي عنه الرسول؛ وهذا هو الذي يُفتت الجماعة أو يوقع في صفوفها الشك وفقدان الثقة، وهذا هو الذي يدبره الشيطان ليحزن الذين آمنوا، ووعد الله قاطع في أن الشيطان لن يبلغ بهذه الوسيلة ما يريد في الجماعة المؤمنة؛ لأن الله حارسها وكائنها؛ وهو شاهدٌ حاضرٌ في كل مناجاة، وعالمٌ بما يدور فيها من كيد ودس وتآمر، ولن يضرَّ الشيطان المؤمنين.. {إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}.. وهو استثناءٌ تحفظيٌ لتقرير طلاقة المشيئة في كل موطنٍ من مواطن الوعد والجزم، لتبقى المشيئة حرةً وراء الوعد والجزم..

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.. فهو الحارس الحامي، وهو القوي العزيز. وهو العليم الخبير. وهو الشاهد الحاضر الذي لا يغيب، ولا يكون في الكون إلا ما يريد، وقد وعد بحراسة المؤمنين. فأَي طمأنينة بعد هذا وأي يقين؟



الوفاء بالعهد

وقد جعلنا هذا الباب في نهاية هذه الرسالة وبعد آفة التناجي مباشرة، لأن التناجي إذا تأسس على غير هُدًى أدى إلى الفرقة والشقاق ونكث العهود.

فلقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "من خَلَعَ يداً من طاعةٍ لقيَ الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعةً مات ميتةً جاهلية"^١.

قال - سبحانه -: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا} [النحل: ٩١].

(والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول - صلى الله عليه وسلم -، ويشمل العهد على معروف يأمر به الله. {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا} [النحل: ٩٢] مثل من ينقض العهد مثل امرأةٍ حقاءٍ مُلتأثةٍ ضعيفةٍ العزم والرأي، تَفْتِلُ غزلها ثم تنقضه مرةً أخرى قطعاً منكروثةً ومحلولة^٢).

وعن عبد الله بن عمر وأنس بن مالك - رضي الله عنهما - قالوا: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "لكل غادرٍ لواءٌ يُنصبُ يوم القيامة يُعرفُ به"^٣ وقد فسر ابن عمر هذا الحديث بأنه الغدر ببيعة الأمراء. قاطعاً الطريق على من يريد أن يتأوله، وكان يقال: ثلاثٌ من كُنَ فيه كن عليه:

* البغي... لقول الله - تعالى -: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [يونس: ٢٣]

* المكر... لقول الله - تعالى -: {لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣]

* النكث... لقوله - تعالى -: {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح: ١٠]

وهذه البيعة المعروفة الآن في الدعوة - والتي توجب حقوقاً لمن بُيع وبائع بالتبادل وفقاً لشروطٍ تفصيليةٍ - إنما هي من البيعات التي يجب الوفاء بها شرعاً، إذ المؤمنون عند شروطهم... وقبلوا الحد من بعض حريتهم في الاجتهاد تمكيناً لممارسة عملٍ جماعي لا تتحقق آمال الدعوة في استئناف الحياة الإسلامية وتحقيق مصالح الأمة إلا بواسطته، ولا يستمر إلا بمثل هذا الحد من حرية المشارك فيه وتفويض قادته صلاحية الأمر ومنحهم الطاعة.. وكلام ابن تيمية في أول الجزء التاسع والعشرين من مجموع فتاويه عن القواعد الفقهية العامة التي تحكم شروط المسلمين في عقودهم وبيوتهم ليس فيه ما يمنع من العمل بهذه الشروط الرضائية التي يوجبها الداعية على نفسه بكامل اختياره طمعاً في أجر وثواب العمل الجماعي،

^١ - صحيح مسلم.

^٢ - الظلال.

^٣ - البخاري.



ورغبةً في الوصول إلى استدراكٍ سريعٍ لحال الأمة يبرد لذعات قلبه اليومية التي تسببها المآسي المتكررة والفجائع المؤلمة.

والحقيقة أن ناكث البيعة يوقع نفسه في جملة أمورٍ رديئةٍ حتى ولو اعتزل ولم يؤذ جماعة العاملين:
* فهو واقعٌ في إثمٍ عدم الوفاء بالعهد، وعلى مقربةٍ من خصلة النفاق البغيضة؛ فإن المنافق إذا عاهد غدر، وأقل ما يقال في هذا العهد الذي أعطاه أنه أكد من النذر الذي يندُرُه على نفسه، والنذر واجب الوفاء يشغل الذمة بمجرد النطق.

* وهو واقعٌ أيضاً في إثم النكوص عن العقد المذموم في القرآن، فليس هو مجرد وقوفٍ سلبي لا يتقدم ولا يزداد من الخيرات، وإنما هو رجوع أيضاً يستهلك ما ادخره من الحسنات.
* ثم إن الناكث يقع رابعاً في إثم انتصابه قدوةً سيئةً لغيره، يشجع من بعده على تقليده وتسويغ النكث أسوةً بسابقته.



وختاماً

أخي الحبيب...

إن كل من خالف الجماعة فإنه لن يجد إلا الوحشة، "فتنكر له نفسه .. حتى ما كأنه هو ولا كأن أهله وأصحابه ومن يُشفق عليه بالذين يعرفهم. وهذا سرٌّ من الله لا يخفى إلا على من هو ميت القلب"^١.
 "والخوف والهَم مع الريبة، والأمن والسرور مع البراءة من الذنب ...
 فما في الأرض أشجع من بريء* ولا في الأرض أخوف من مريب
 وهذا القدر قد ينتفع به المؤمن العاقل البصير إذا ابتلي به ثم راجع"^٢.

وقبل الوداع:

"فيا أيها الناظر فيما جمعتُ، لك غنمٌ وعلى جامعهِ غُرمه، ولك صفوه وعليه كَدَره، وهذه بضاعته المُرْجاة تُعَرِّضُ عليك، وبناتُ أفكاره تُزَفِّ إِيْلِكَ، فإن صادفتُ كُفُوًا كريمًا، لم تَعْدَم منه إمساكًا بمعروف أو تسريحًا بإحسان، وإن كان غيرُه فالله المستعان، وما كان من صوابٍ فمن الله الواحد المتان، وما كان من خطأٍ فمني ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله"^٣.
 وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى ما كتبه شيخنا الفاضل أبو مصعب الزرقاوي رحمه الله

المصدر: مركز الفجر للإعلام



^١ - زاد المعاد.

^٢ - زاد المعاد.

^٣ - من كلام ابن القيم بتصرفٍ يسير.